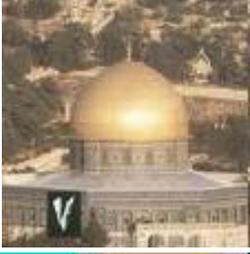


محمد مقصودة

## حديث في النهضة وفلسطين



هل يمكن أن يكون ما حدث في العالم الإسلامي سنتي 1948 و1967 نتيجة منطقية لتخلفنا ؟ وهل كان بالإمكان أن لا يحدث الذي حدث من ضياع لفلسطين والقدس والأراضي العربية لو كان الحال غير تلك الحال ؟ وهل كانت ظاهرة إحتلال بلاد المسلمين وتقاسمها بين القوى الكبرى التي عال إليها زمام حضارة العالم لإنتاج تخلف العرب والمسلمين عن ركب هاته الحضارة ؟ وعليه فهل إستعادة الأقصى وفلسطين مرهونة بمدى تحقيق شروط التنمية والحضارة ؟هاته الأسئلة وغيرها كثير يحاول هذا الموضوع المتواضع أن يبحثها وإن كانت ستبقى تشكل كبرى الإستفهامات والقضايا التي تواجه الأمة مجتمعة

إن العلاقة الحقيقية بين نهضة الأمة وحسم الصراع مع المشروع اليهودي الصهيوني في فلسطين، لايماري فيها من له أدنى مسكة من عقل، ذلك أن تحرير فلسطين يمر حتماً عبر إستعادة المسلمين لمكائهم بل هو نتيجة لاحقة لهاته النهضة وأحد ثمارها .



## متلازمة فلسطين والنهضة :

مسألة فلسطين تعتبر بحق معيار لمدى تفاعل المسلمين مع دورة الحضارة عبر مخاض عسير تتجلى نتائجه من خلال تحقيق شروط النهضة والحضارة التي فقدها العالم الإسلامي منذ سقوط الموحدين والذي كان مقدمة لفقد الأندلس، وتعددة المشكلة عبر تراكبات تاريخية شملت الوجدان والمعرفة وسائر أطر صناعة الحياة البشرية والطبيعية لتصل إلى حالة التيه وفقدان البوصلة والهوية التي نحيها اليوم. . . ولا بد لفك هاته العقد من مراجعات وتقويمات صريحة وإعادة النظر في المفاهيم والسلوكات الموروثة أو المستوردة عن غير وعي .

إن الذي حدث في فلسطين سنة 1948 وماتبعه من جرائم صهيونية وحالة الاستعمار الطويلة التي عاشها العلم الإسلامي وكان لها بالغ الأثر على واقع ومستقبل الأمة شكل محطات متتالية في مسيرة التخلف والقهقري والتي تمثل فلسطين أحد أهم مظاهرها حتى باتت هاته القضية محطة مفصلية في سعي المسلمين نحو النهضة.

وقد يطرح السؤال جدلا حول أيها أولى وأسبق النهوض بواقع الأمة أم تحرير فلسطين ؟ لكن طبيعة القضية وتميزها ومتطلبات النهضة وشروطها يخلق نوعا من التلازم لإفكك عنه ، ومراجعة النظريات والدراسات حول هاته المسألة يفضي إلى فئاعة أساسية هي أن الأمة في حاجة إلى تصور شامل موحد لمنهج الخروج من الأزمة وأن إستمرار الحالة الراهنة عطل الأمة عن دورها الحضاري، وأورث الأجيال المتعاقبة أسقاما فكرية وسلوئية ساهم في تكريسها عوامل شتى داخلية وخارجية مما جعل حالة الجمود و"المفعول به" حالة متأصلة لايمجد عنها ، أوقل حالة فطرية أصبحت معها ردود الفعل العابرة أو الاشغالات السلبية هي سمة الفعل الإسلامي، حتى أن تغيير حالة الدون هذه أو اجتثاثها لكائنه من قبيل تغيير العوائد السائدة الغائرة الغير قابلة للتغيير. . . وهاته الحالة المرضية خلقة عندنا تصورات من قبيل أن حسم قضية فلسطين لصالح الأمة ضرب من الخيال أو لما يجن الوقت بعد أو أن زوال الكيان الصهيوني من علامات القيامة الكبرى بل الأدهى من هذا كله تصور أن لاهياة ولا وجود إلا من خلال الآخر الذي نستخدم منه الأفكار والأشياء والهواء.



وللأسف فإن قابلية التخلف تتطور من جيل لآخر حتى باتت هي الحالة الطبيعية التي عليها نحيا وعليها نموت لأننا فطرنا عليها كما يفطر المولود على العوائد والتقاليد.

وطالما ظل مجتمعنا عاجزا عن تصفية هذه الوراثة السلبية التي أسقطته منذ قرون ومادام متقاعسا عن تجديد بيان الإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية الحقة ، ومناهج العلم الحديثة فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته وترتيب جديد لتاريخه سيكون باطلا عديم الجدوى [1]

إن تحرير فلسطين والأقصى المبارك يمر حتما عبر تطهير وتنقية عقل الأمة وضميرها من مجموع الأمراض المتركمة...والله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، أي أن الدافع الداخلي ضروري في كل عملية تغيير بل إنه عامل حاسم في الدفع نحوها وضمن لإستمراريتها ، وإلا فلن تكون هناك سوى حالات من الوعي المتقطع المجتزئ في إطار غيبوبة طويلة وسبات عميق وما من مسلم إلا ويتحصر لحال الأمة ويستعجن رد فعل مختلف منظوماتنا الرسمية والغير رسمية على هاته الحالة وتعاملها معها ، وكثر من ذلك لا يفهم حالة السلبية والجمود التي تكتنف هاته المنظومات حتى أضحي تصور واقع أفضل من قبيل المستحيلات

إن الأمة في أمس الحاجة الى مراجعات صادقة ترسم المعالم الكبرى والخطوات الأساسية وتجدد لها حياتها وكما إستغرق السقوط أجيالا أورثت بعضها بعضا عوامل الانهزامية حتى صار مكونا جينيا وصلا فطريا فإن النهوض والبناء أشد استغراقا كما هو الشأن في كل الظواهر الاجتماعية التي تسبقها إرهابات وتتلوها تبعات ، ذلك أن التغيير في عالمنا الإسلامي يقتضي بالضرورة الجمع بين متناقضات الآخر أو على الأقل مايعتبره كذلك ضمن علاقات تكامل لا تنافر أي انه يقتضي الجمع بين العلم والضمير أو بين العلم وهداية الدين وبين السياسة والأخلاق وبين التقوى والتقنية وبين كثير من الثنائيات التي لا تصلح الحياة إلا بهما مجتمعة ، لكن الآخر ألغى بعضها وعلى من شأن البعض الآخر عن غير علم أو هدى إنما نتيجة أوضاع ومعطيات ظالمة مجحفة...وهل عرفت القيم الإنسانية طريقها إلى النظريات العلمية إلا يوم تولى المسلمون إنتاج المعرفة ، ومن الخطورة بمكان أن نعتقد أيا كان الاحترام الذي يمكننا أن نكنه لمفكري الماضي الكبار أن الفكر المبدع فكر الإسلام توقف معهم ون هذا التقليد الذي يعود للقرون الوسطى يمكنه أن يبدل بجواب عن مشكلات عصرنا [1] ونحن نعاين المآزق الذي وصلت إليه الحضارة الغربية بعد أن راهنت على المادية المطلقة في الأفكار والأشياء... وما أمر أزمة الليبرالية المالية الحالية منا بعيد .

في هذا الحضم تعددت ضرورة التغيير مرحلة القناعة إلى مرحلة البحث عن المنهج وتأتي الدراسات والنظريات المتقاربة والمتباعدة لتتقترح الحلول وطرق ومناهج التغيير فيما يبدو أن هاته العملية أعمق بكثير مما تتصوره فهناك قضايا كبرى لما تحسم بعد كسألة الوحدة ونظم الحكم والديمقراطية والحريات ومناهج التعليم ودور المجتمع المدني في الحياة العامة... وهاته القضايا المستعصية يشكل حلها وإنزالها واقعا مفعلا ، معالم المجتمع المنشود ومحدداته الأساسية لذلك فإن الصدق والصراحة في دراستها عامل أساسي لأنها تحتاج إلى مراجعات وتقويمات تكون إطار لتأسيس التغيير الفاعل الخلاق وهذا ليس بالتحدي الهين لأنه القانون الشرط الذي يقوم عليه تأسيس آليات حمل وتطبيق المشروع الحضاري الإسلامي وتصحيح توجيهات الأمة في مختلف المجالات والعودة إلى إحياء دورها الرسالي ، وهو في ذات الوقت الرد الموضوعي على الأسباب التي أدت إلى الانهزام والسقوط ، سواء كانت داخلية أو خارجية ، وعلى خطط العولمة المعاصرة التي تسعى دائبة إلى تحطيم مقومات المجتمع الأهلي برمتها (ثوابت ، مبادئ ، قيم ) ، ثم استحداث مجتمع مكانه آخر يحمل نفس الرؤى الحضارية. ذلك أن الهيمنة الكاملة غير ممكنة ما لم تحطم المراكز العقيدية والخصائص الحضارية ، وتحل محلها مقومات التبعية [1].... وقد وضع الله تعالى قوانين ونواميس للتغيير لا تحايي أحدا .. "لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا بِأَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ." [2] وإن مدى الاستجابة لهاته القوانين هي التي تحدد مدى النجاح في تحقيق التغيير المنشود .



وإنه لمن صميم هذا النجاح الحسم في المسألة الفلسطينية من خلال رؤى منهجية واقعية تكون القاسم المشترك لأصحاب القضية ألا وهم المسلمون كل المسلمين، بل إن التفاعل مع ما يجري بأرض فلسطين مؤشرا هام في مسار النهضة والتنمية والوعي بقضايا الأمة المصرية، هاته القضايا المرتبطة برباط عضوي لا انفصام له قد تصغر وقد تكبر منها من هو على مستوى الفرد ومنها من هو على مستوى الدولة والأمة .

إن طريق فلسطين يقتضي إصلاح نفوسنا التي بين جنيننا من أمراضها التي على رأسها حب الدنيا والتنافس عليها وهو كذلك يقتضي إصلاح عقولنا وأفكارنا الأسنة والمستوردة وقيمنا وحتى قناعاتنا التي تاهة عن هويتنا وتحتاج إلى مراجعات وتصحيحات.... وهو بعد هذا كله وتحصيلة له يمر بالضرورة عبر صناعة التنمية والتنمية المستدامة التي تحصن الأجيال اللاحقة ، والنهضة الاجتماعية المنشودة ، ما من شأنه أن يصرف إشغال الناس وهمهم بتأمين متطلبات العيش إلى إشغالهم وتوجيههم لتأمين متطلبات الهوية والوجود وصناعة الحياة وحتى ذلك الجيل يبقى صوت البطن أقوى من صوت العقل والضمير ، ومعه يبقى الأقصى ضحية هزيمة المسلمين في عالم الأفكار والمعرفة والأشياء وعلامة على تخلفهم الحضاري.

المراجع :

القرن الكريم

مالك بن نبي، وجمعة العالم الإسلامي ترجمة عبد الصبور شاهين، منشورات الشركة الوطنية للنشر والإشهار الجزائر طبعة 1981

الدكتور محمد أمحزون، أبحاث في الدعوة والتاريخ والاجتماع

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة مصر، الطبعة الأولى 2008

روجيه غارودي، الإسلام ترجمة وجيه أسعد دار الفارابي بيروت - لبنان الطبعة الثانية الجزائر 2001